الزواج الإسلامي

حدَّثنا محمودٌ، حدَّثنا أبو أسامةَ، حدثنا هشامٌ قالَ: أخبرني أبي عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قالتْ:

تزوَّجني الزبيرُ، وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ، ولا شيءٍ غير ناضحٍ[1] غير فرسه[2]، فكنتُ أعلفُ فرسَهُ، وأستقي الماءَ، وأخْرِزُ غَرْبَهُ[3]، وأعجنُ، ولم أكنْ أُحسِنُ الخبزَ، وكان يخبزُ جاراتٌ لي من الأنصارِ، وكُنَّ نسوةَ صدقٍ، وكنتُ أنقُلُ النَّوى من أرضِ الزبيرِ ـ التي أقطعَهُ رسولُ الله ﷺ ـ على رأسي، وهي منِّي على ثلثي فرسخٍ، فجئتُ يوماً، والنَّوى على رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ، ومعه نفرٌ من الأنصارِ، فدعاني ثمَّ قالَ: «إِخْ، إِخْ» ليحملَني خلفَهُ، فاستحييتُ أن أسيرَ مع الرِّجالِ[4]، وذكرتُ الزبيرَ وغيرتَهُ،

---

(١) الناضح: الجمل الذي يُسقى عليه الماء.

(٢) كان الزبير فارساً بطلًا، يندر أن نرى مثيلًا له في الشجاعة، لذلك كان الفرس جزءاً من ضروریاته للجهاد عليه في سبيل الله، وكانت أسماء تعتني له به وتهيئته ليوم الحرب.

(٣) الغرب: الدلو الكبير، وخرزه: أي إصلاحه وخياطته ليصلح لرفع الماء به.

(٤) هكذا كانت سمة المسلمة ـ الحياء ـ لأن الحياء من الإيمان، ولأن زينة النساء الحياء، مع أنه الذي دعاها هو أشرف خلق الله، ومعه أطهر الناس ديناً وخلقاً بعد الأنبياء والرسل. فأين المسلمون اليوم من هذه الأخلاق؟.

وكان أَغْيَرَ الناسِ، فعرفَ رسولُ الله ﷺ أنِّي قد استحييتُ فمضى، فجئتُ الزبيرَ، فقلتُ: لقِيَني رسولُ الله ﷺ وعلى رأسي النَّوى، ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخَ لأركَبَ فاستحييتُ منه وعرفتُ غيرتَكَ. فقال: والله لَحَمْلُكِ النَّوى كانَ أشدَّ عليَّ من ركوبِكِ معَهُ.

قالت: حتى أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ بعدَ ذلك بخادمٍ يكفيني سياسةَ الفرسِ فكأنَّما أعتقني[1].

أخرج مسلم هذا الحديث بروايتين، وفيه بعض الزيادات[2]، فقال:

حدَّثنا محمدُ بنُ العلاءِ، أبو كُرَيْب الهَمَدانيِّ، حدثنا أبو أسامةَ عن هشامٍ، أخبرني أبي عن أسماءَ بنتِ أبي بكر قالتْ:

«تزوَّجني الزبيرُ، وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ غيرِ فرسِهِ، قالت: فكنتُ أُعلِفُ فرسَهُ، وأكْفيه مَؤُونَته وأسوسُه، وأدقُّ النَّوى لناضحِهِ[3]، وأُعْلفُهُ، وأستقي الماءَ، وأخرِزُ غَرْبَهُ، وأعجنُ، ولم أكُنْ أُحْسِنُ الخبزَ، وكان يخبزُ لي جاراتٌ من الأنصارِ، وكُنَّ نسوةَ صدقٍ.

قالتْ: وكنتُ أنقلُ النَّوى من أرض الزبير ـ التي أقْطَعَهُ رسول الله ﷺ[4] ـ على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ[5].

---

(١) وأخرجه البيهقي في كتاب «إحياء الموات»، باب: كل موات لا مالك له أين كان».

(٢) وأخرجه البيهقي في كتاب «الصداق»، باب: «ما يستحب لها رعاية لحق زوجها وإن لم يلزمها شرعاً».

(٣) تطحن نوى التمر لتقدمه عَلَفاً للجمل والفرس.

(٤) أقطعه: أعطاه قطيعة، وهي قطعة أرض سميت قطيعة لأنه اقتطعها من جملة الأرض.

(٥) على ثلثي فرسخ: أي بُعدها عن مسكنها في المدينة. والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً مُعترضة معتدلة، =

قالت: فجئتُ يوماً والنَّوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ، ومعه نفرٌ من أصحابه، فعادني ثمَّ قال: «إخْ، إخْ»[1] **ليحملني خلفه، قالتْ: فاستحييتُ وعرفتُ غيرتكَ[2]، فقال: والله لحَمْلُكِ النوى على رأسكِ أشدُّ من ركوبكِ معه. قالتْ: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادمٍ[3] فكفتني سياسة الفرس، فكأنَّما أعتقني.**

أما الرواية الثانية فهي من طريق محمدِ بنِ عبيدِ العَنْبَريِّ، قالَ: حدثنا حمادُ بنُ زيدٍ عن أيوبَ عن ابنِ أبي مليكة أن أسماءَ قالتْ:

«كنتُ أخدُمُ الزبيرَ خدمةَ البيتِ، وكانَ له فرسٌ، وكنتُ أسوسُهُ، فلم يكنْ من الخدمةِ شيءٌ أشدَّ عليَّ من سياسةِ الفرسِ: كنتُ أَحْتَشُّ له[4]، وأقومُ عليه، وأسوسُهُ.

قال: ثمَّ إنَّها أصابتْ خادماً، جاء النبيَّ ﷺ سَبْيٌ فأعطاها خادمة. قالت: فكفتني سياسةَ الفرسِ، فألقتْ عني مَؤُونَتَهُ، فجاءني رجلٌ فقالَ: يا أمَّ عبدِ اللَّه، إني رجلٌ فقير أردتُ أنْ أبيعَ في ظلِّ

= والإصبع ست شعيرات معترضات معتدلات. وبعد تقدير هذه المقاييس ومقارنتها بالمقاييس المِترية نستخلص أن الذراع ما بين ٤٠ ـ ٥٠ سنتمتر، فيصبح الميل ٤٠ + ٦٠٠٠ = ٢٤٠٠٠٠ سم أي ٢٤٠٠ متر، أو ٥٠ × ٦٠٠٠ = ٣٠٠٠٠٠ سم أي ثلاثة آلاف متر. والفرسخ ما بين سبعة آلاف متر ومئتي متر وتسعة آلاف متر، والمسافة التي تبلغ ثلثي فرسخ ما بين ٤٦٠٠ متر وستة آلاف متر كانت تمشيها كل يوم.

(١) إخ إخ: كلمة تقال للبعير ليبرك.

(٢) أي الزبير.

(٣) وهذا يدل على حب الصدِّيق وتكريمه لبناته ولو كن متزوجات.

(٤) جاء في «لسان العرب» لابن منظور: «وحشَّ الحشيش حشًّا واحتشَّه، كلاهما: جَمَعَه»، ج ١، ص ٦٤٣.

داركِ، قالتْ: إنْ رَخَّصْتُ لكَ أبى ذلك الزبيرُ، فتعالَ فاطلبْ إليَّ والزبيرُ شاهِدُ، فجاءَ فقال: يا أمَّ عبدِ اللَّه، إني رجلٌ فقيرٌ أردتُ أنْ أبيعَ في ظلِّ دارِكِ، فقالتْ: ما لَكَ بالمدينةِ إلاَّ داري؟

فقال لها الزبيرُ: ما لكِ أنْ تمنعي رجلاً فقيراً يبيعُ! فكان يبيعُ إلى أنْ كَسَبَ، فبعتُهُ الجاريةَ، فدخلَ عليَّ الزبيرُ وثمنُها في حِجْري، فقال: هبيها لي، قالتْ: إني تَصَدَّقْتُ بها[1].

صحيح مسلم، كتاب «السلام»، باب: جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق.

أخرجه البخاري في كتاب «النكاح»، باب: الغيرة، وفي «فرض الخمس»، باب: ما كان يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.

وأخرجه مسلم في «السلام»، باب: جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق. والنسائي في «عشرة النساء»، والبيهقي، وابن حبان. وأخرجه أحمد والطبراني، وزاد هو ومسلم ما جاء عن الخادم، وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة، روى له أبو داود والنسائي[2].

وورد الخبر في «تاريخ دمشق» ١٤ ـ ١٦ من أخبار النساء، وفي «الطبقات»، و«الإصابة» وغيرها.

---

(١) «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» ١٠/ ٣٥٢، رقم(٤٥٠٠). وانظر: «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» ١١/ ٢٤٧، رقم الحديث (١٥٧٢٥).

(٢) انظر: «فتح الباري» بشرح البخاري ٩/ ٣٢٤، وصحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ١٦٤.

هذا الحديث يكشف جانباً من شخصية أسماء بكل صدق وبساطة، فهي هنا الفتاة المسلمة التي تربت في أحضان الإسلام، ونشأت في الأسرة المسلمة التي تعمل بشرع الله وتقدم حياتها في سبيل الله. وكذلك يكشف عن بساطة الزواج الإسلامي، ومقوماته الحقيقية. فهو لا يأبه بالمظهر من مال ومتاع وجاه، بل يقوم على سنَّة الله ورسوله، فالزوج يبحث عن ذات الدين والخلق أولًا، والمرأة ترضى بصاحب الدين والخلق أيضاً.

والزبير الشاب المؤمن يتقدم لخطبة أسماء وليس له مال ولا متاع، ولا يملك إبلًا ولا غنماً أو أرضاً أو تجارة، أو عبيداً أو غير ذلك. فهو لا يملك غير أدوات الجهاد السيف والفرس، والبيت الذي يأويه، وضرورات الحياة فقط.

ولكنه الشاب المؤمن الخلوق، ذو النسب، وهذه الصفات كافية ليكون الزوج الكفء.

ورضيته أسماء، وزوَّجه الصّدِّيق رضي الله عنه من ابنته المؤمنة أسماء. وكان متاعه يومذاك: أرض أقطعه إياها رسول الله ﷺ، وفرس يبقيها ليوم الحرب، وجمل ينقل عليه الماء، وبعض الأدوات الضرورية في البيت من فراش ومخدة ولحاف وغير ذلك.

ورضيت أسماء ورضي الصّدِّيق التاجر الغني لابنته هذا الزواج البسيط لأن الغنى بالنفس المؤمنة.

وانتقلت أسماء لبيت الزبير، وبدأت تقوم بخدمته وخدمة فرسه وناضحه، وكانت خدمة شاقة ولا شك.

وكما قالت: «فلم يكنْ من الخدمةِ شيءٌ أشدَّ عليَّ من سياسةِ

الفرس: كنتُ أحتشُّ له، وأقومُ عليه، وأسوسُهُ». «وكنتُ أنقل النوى من أرضِ الزبير... على رأسي وهي على ثلثي فرسخ». «وأدقُّ النَّوى لناضحه». «وأستقي الماءَ، وأخرزُ غَرْبَهُ».

والفرس يحتاج إلى الرجل الذي يعرف كيف يسوسه ويعتني به، وبعلفه وبنظافته، وتدريبه، ومع ذلك كانت أسماء تقوم بهذا كله، والحشيش تُحضره من الأرض البعيدة، وتجمع نوى التمر وتنقله على رأسها لمسافة بعيدة تبلغ عدة كيلومترات في مقاييسنا الحالية، ثم تدق النوى ليكسر ويطحن ويصبح صالحاً لعلف الحيوان، وكذلك تخرج الماء وتنقله على الجمل، وتهيئ الدلو وتصلحه لذلك، إضافة إلى خدمة البيت من طبخ وعجن وخبز.

أليس في كل هذا مشقة كبيرة، تقوم به أسماء وحدها دون خادم أو معين إلا رب العالمين، طاعة لله ورسوله، ووفاء بحق زوجها وخدمة له لتتيح له فرصة التفرغ للسعي والدعوة والجهاد.

وهذه هي حياة الدعاة الذين يسعون في الأرض جهاداً وطاعة لله، وقياماً بأمر الأمانة التي يحملها المسلم في الحياة، ولا سيما حينما تُطبق الجاهلية على الأرض ويتحكم الطواغيت بالناس فيحكمون بغير ما أنزل الله عزّ وجلّ...

وهنا لا بد من التنويه بأن خدمة المرأة لزوجها غير مفروض عليها، وأن هذا الذي كانت تقوم به أسماء ومثله ـ كما يقول الفقهاء ـ تبرع منها وإحسان إلى زوجها، وحسن معاشرة منها وفعل معروف[1].

---

(١) «فتح الباري».

ويرجِّح ابن حجر أن أمر الخدمة في البيت يُحمل على عوائد البلاد، فإنها مختلفة في هذا الباب.

قال المهلب: وفيه أن المرأة الشريفة إذا تطوعت بخدمة زوجها بشيء لا يلزمها، لا ينكر عليها ذلك أب ولا سلطان.

ورأى بعضهم أن هذا يدل على لزوم الخدمة، وأنه لو لم يكن لازماً لما سكت أبوها مع ما فيه من المشقة عليه وعليها، ولما أقرَّ النبي ﷺ ذلك مع عظمة الصّدِّيق عنده.

وأياً كان الأمر، فإن البيت المسلم لا يقوم على حدود المسؤوليات المحددة، بل يصبح كياناً واحداً، يبذل كِلاَ الزوجين أقصى ما يملك بإخلاص ووفاء لمرضاة الله عزّ وجلّ، يتعاونان على طاعة الله عزّ وجلّ، يقوم الرجل بمسؤوليته، ويعين زوجته في أعمالها، وتقوم المرأة بمسؤوليتها، وتعين زوجها في عمله، ليغدو البيت حَلَقةً من حلقات الجهاد، ومدرسة من مدارس الدعوة، ولبنة من بناء المجتمع الإسلامي، وفي مثل ذلك الظرف لا يقف الحد عند مسؤولية محددة، لا سيما وأن الصّدِّيق والزبير وبقية الرجال المؤمنين مشغولون بالجهاد والدعوة، وكانوا لا يتفرغون للقيام بأمور البيت، مع ما كان من الضيق والفقر الذي نزل بهم بعد الهجرة، لذلك انحصر الأمر بنسائهم ليتوفروا على ما هم فيه من نصر الإسلام[1].

---

(١) المصدر السابق. وانظر تفسير سورة الحشر بالطبري وابن كثير وغيره، وكذلك انظر في سيرة ابن هشام عن غزوة بني النضير.

ولقد عبَّرت أسماء عن شدة التعب بما أحست به عندما أعطاها أبوها الخادمة: «فكأنما أعتقني».

وعند الجمع بين روايتي البخاري ومسلم حول الخادم نخلص إلى أن رسول الله ﷺ أعطى أبا بكر من السبي الذي جاءه ليرسله إلى أسماء، فصدق أن النبي ﷺ هو المعطي، وأن أبا بكر هو الواسطة، لذلك وردت الروايتان بأن الرسول ﷺ أعطى. وكذلك أبا بكر، أما الأرض التي كانت للزبير فهي مما أفاء الله على رسوله ﷺ من أموال بني النضير، وكان ذلك في أوائل قدومه المدينة[1].

وفي الحديث، حديث عطر عن نساء الأنصار، وثناء حسن عليهن، وشهادة صدق من أسماء عن حسن استقبالهن لأخواتهن المهاجرات، وحسن معاملتهن لهن مع كريم الخلق الذي أبدينه.

فالدعوة يحملها رجال ونساء، والمجتمع الإسلامي لا يقوم إلا إذا كانت نساؤه كرجاله في الإيمان والصدق والتضحية وتحمُّل المسؤولية.

أما موقف الزبير ـ الذي عرف بالغيرة الشديدة على امرأته ـ فهو موقف الشاب المؤمن الصّادق، والفارس الشجاع المجاهد، والمسلم التقي الداعية. إنه غيور على محارم الله، غيور على شرفه وعرضه، وهذا من صدق الإيمان وكريم الخلق.

---

(١) جاء في «لسان العرب» لابن منظور، ج ٢، ص ٢٦٤ في تفسير الحديث: «أي المتكثِّر بأكثر مما عنده يتجمل ذلك كالذي يُري أنه شبعان وليس كذلك ومن فعله فإنما يسخر من نفسه، وهو من أفعال ذوي الزُّور بل هو في نفسه زور وكذب، الخ...».

وإنه صادق الفطرة في الرجولة والشرف والغيرة نحو الزوجة الوفيّة المؤمنة. إنها صورة البيت المسلم العفيف الطاهر، اللبنة القوية، والدعوة المخلصة. الزوجة تحترم أدق مشاعر الزوج وتحرص على مرضاته وطاعته لأن ذلك مرضاة لله ورسوله، فلا تخدش مشاعره بشيء، وتذكر غَيْرته في أدق المواطن، ويرضى رسول الله ﷺ عن هذا ويستحسنه، وكذلك يفعل الزوج الغيور على زوجته، المهتم بما يصيبها من تعب.

ونقف عند هذا التصرف الذكي، بما فيه من وفاء، وحب للخير، وصدق مع الله ورسوله، عندما جاءها الفقير يستأذنها في البيع في ظل دارها، تريد فعل الخير وتحبه، ولكنها تخشى أن يؤذي ذلك زوجها لشدة غيرته، فتسلك مسلكاً يؤدي بها إلى الخير ورضاء الزوج، وتوحي للفقير بالطريقة المناسبة واللحظة المناسبة.

ولا يتاح لها ذلك لو لم تكن تعرف طباع زوجها وخلقه، وأدق مشاعره ونجحت وقامت بالخير الذي تريده ونالت مع زوجها الثواب وحصلت على رضاء الزوج. وكان في ذلك مثل لتصرف الزوجة بطريقة حسنة، بعد أن تفهم نفسية زوجها فتراعي مشاعره، وترضي أحاسيسه، ما دامت مشروعة ومحمودة، ولو كلفها ذلك بعض الجهد، لأن في ذلك كسب لمرضاة الله عزّ وجلّ، الذي هو الغاية الكبرى للمسلم.

والمرأة مسؤولة في بيت زوجها

أخرج البخاري من رواية أسماء في كتاب «النكاح» هذا الحديث:

حدثنا سليمانُ بنُ حربٍ، حدثنا حمادُ بنُ زيدٍ عن هشامَ، عن فاطمةَ عن أسماء، عن النبي ﷺ:

وحدثني محمدُ بنُ المثنى، حدثنا يحيى عن هشامٍ، حدثتني فاطمةُ عن أسماءَ:

«أنَّ امرأةً قالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ لي ضَرَّةً، فهل عليَّ جُناحٌ إنْ تشبَّعتُ من زوجي غيرَ الذي يُعطيني؟».

فقال رسولُ الله ﷺ: «**المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»(١).

وأخرج مسلم هذا الحديث في كتاب «اللباس والزينة»، باب: «النهي عن التزوير في اللباس وغيره»، من طريقين: أولهما طريق محمد بن عبد اللَّه بن نميرة عن عبده، وثانيهما عن أبي بكر بن أبي شيبة.

---

(١) انظر: صحيح ابن حبان ١٣/ ٤٨، الحديث (٥٧٣٨). وقال عنه محقق الكتاب: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للحافظ المزي ١١/ ٢٥٥، رقم الحديث (١٥٧٤٥)، وبحاشيته «النكت الظراف على الأطراف» لابن حجر.

وأخرجه ابن حبان بلفظ: «**إنَّ المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**».

وأخرج الإمام أحمد هذا الحديث في مسنده من طريق أبي معاوية بلفظ:

«فقالتْ: يا رسول ﷺ إن عليَّ ضَرَّةً، فهل عليَّ جُناحٌ أنْ أتشبَّعَ من زوجي بما لم يُعطني...» تتمة الحديث.

وأخرجه أيضاً من طريق يحيى بن سعيد عن هشام بهذا اللفظ:

«إن لي ضَرَّة فهل عليَّ جُناحٌ إن تشبَّعْتُ من زوجي بغير الذي يعطيني...».

ومن طريق يحيى بن سعيد بلفظ آخر، حيث قال:

فكانَ جوابُ رسول الله ﷺ: «**المتشبِّعُ بما لم يُعْطَهُ كلابِسِ ثَوْبَيْ زُور**» بزيادة الهاء في يعطه.

وأخرجه أبو داود في سننه في كتاب «الأدب»، باب: «فيمن يتشبع «المتشبع» بما لم يعط»، مع اختلاف بعض الألفاظ:

«يا رسول الله، إنَّ لي جارةً ـ تعني ضَرَّةً ـ هل عليَّ جُناح إن تشبَّعتُ لها بما لم يُعْطِ زوجي؟». وبقية الحديث كما مرّ.

وقال المنذري: أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

وأخرجه البيهقي في كتاب «القسم والنشوز»، باب: «المتشبع بما لم ينل ولم يُنهَ عنه من افتخار الضرَّة»، عن طريقين:

١ ـ عن عبد اللَّه الحافظ وأبي سعيد بن أبي عمرو، وعن العباس بن محمد... عن أسماء.

٢ ـ والرواية الثانية من طريق أبي العباس محمد بن يعقوب عن أحمد بن عبد الحميد الحارثي. . . وجاءت بهذا اللفظ: «جاءتِ امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أيصلحُ لي أنْ أقولَ أعطاني زوجي ولمْ يُعْطِني، إنَّ عليَّ ضرة».

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور**».

وأخرجه النسائي والطبراني واليعقوبي وابن حبان[1].

* * *

وتأتي أهمية الحديث من كونه يحدد العلاقة بين المرأة وزوجها، وبينها وبين ضرتها:

والمرأة مفطورة على الغيرة من الضرة، ولكن هذه الغيرة ينبغي أن تقف عند الحدود السليمة، وتضبط بضوابط الشريعة، وأن لا تدفعها إلى التظاهر بغير الحقيقة، أو الخروج عن دائرة المباحات وارتكاب بعض المعاصي والذنوب.

والحديث يشير إلى هذا الوعي الرائع، والإيمان الصّادق الذي كان يدفع المرأة المسلمة لأن تسأل عن كل أمر يثيرها حتى لا تقع في الإثم، ولا تترك لهواها وغرائزها أن تسير بها إلى غير مرضاة الله سبحانه وتعالى، لذلك جاء الحديث نتيجة لسؤال امرأة من المسلمات عما يجوز لها من مال زوجها. وكما ورد في رواية لمسلم عن عائشة: «تسألُ المرأةُ: يا رسول الله، أقول إنَّ زوجي أعطاني ما لمْ يُعْطِني؟».

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم.

وكان جواب رسول الله ﷺ قاطعاً في بيان الأمر، وصوَّره لنا بصورة مَنْ يتظاهر بما ليس عنده، ويُظهر غير الحقيقة، وهي صورةٌ مستقبحة.

يقول النووي: قال العلماء: معناه: المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده، يتكثر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل فهو مذموم كما يُذَمّ من لبس ثَوْبَيْ زور.

قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع، ومقصودُه أن يُظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة، ويُظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه، فهذه ثياب زور.

وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره، وأوهم أنهما له.

وقيل: هو من يلبس قميصاً واحداً، ويصل بكُمَّيه كُمَّين آخرين، فيظهر أنَّ عليه قميصين.

وحكى الخطابي قولاً آخر: أنَّ المرادَ هنا بالثوب: الحالة والمذهب، والعرب تكني الثوب عن حال لابسه، ومعناه أنه كالكاذب القائل ما لم يكن، وهو يشبه أيضاً شاهد الزور الذي يتجمَّل في ثوبين، فلا تُرَدُّ شهادتُه لحسن هيئته، والله أعلم[1].

وهكذا نرى من هذا الشرح صوراً من التظاهر المقيت الذي لا يجوز للمسلم أن يقع فيه، رجلاً كان أو امرأة، لأنه يتنافى مع حقائق الإيمان والصدق، لأن الله عزّ وجلّ يعلم السر وأخفى، وهذه الصور مما يجهله كثير من الناس فيقعون فيها.

---

(١) انظر: «فتح الباري» ٩/٣١٧.

ويشير ابن حجر إلى معنى الحديث في فتح الباري فيقول في باب: «المتشبع بما لم ينل وما ينهى عن افتخار الضرة» إشارة بهذا إلى ما ذكره أبو عبيد في تفسير الخبر قال: قوله: «**المتشبِّع**»: أي المتزيِّن بما ليس عنده، يتكثر بذلك، ويتزيّن بالباطل، كالمرأة تكون عند الرجل ولها ضرة، فتدَّعي من الحُظْوَة عند زوجها أكثر مما عنده، تريد بذلك غيظَ ضرتها، وكذلك هذا في الرجال.

قال: وأما قوله: «**كلابس ثوبي زور**» فإنه الرجل يلبس الثياب المُشْبهة لثياب الزهاد، يُوهِمُ أنَّه منهم، ويُظْهِرُ من التخشع والتقشف أكثر مما في قلبه منه.

قال: وفيه وجه آخر، أن يكون المراد بالثياب الأنفس. كقولهم: فلان نقي الثوب، إذا كان بريئاً من الدنس، وفلان دنس الثوب، إذا كان مغموصاً عليه في دينه.

ثم أورد عن الخطابي المعنى الذي نقلناه آنفاً في شرح النووي. وأشار إلى حكم التثنية «**ثوبي زور**» فقال: فللإشارة إلى كذب المتحلي مثنى، لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره ما لم يُعْطَ، وكذلك شاهد الزور يظلم نفسه، ويظلم المشهود عليه، وكل هذا لتنفير المرأة عما ذكرت خوفاً من الفساد بين زوجها وضرتها، ويورث بينهما البغضاء.

ولقد رأينا في إحدى روايات الحديث: «إنَّ لي جارةً» بدلاً من ضرة، وهما بمعنى واحد، والمعنى الثاني ألطف في التحدث عن الضرة، والله أعلم[1].

---

(١) انظر: «تحفة الأشراف» ٢٤٨/١١، رقم الحديث (١٥٧٢٦)، وصحيح ابن =

مما سبق نرى أهمية الحديث في معالجة مشكلات البيت المسلم، وضبط السلوك الإسلامي عند الرجل والمرأة على السواء، مع تهذيب النوازع والغرائز وضبطها حتى لا تُهْلِكَ الإنسانَ، وتفسد الطبائعَ، وتورث الضغائن، وتثير الشحناء في البيوت، مع بيان الحدود الشرعية التي تقف عندها المرأة في النفقة من مال الزوج.

= حبان ١/ ٥٢٧، رقم الحديث (٢٩١). وقال عنه: إسناده صحيح على شرط البخاري، و«كنز العمال» ٣/ ٣٨٨.

obeikandl.com

غيرة الله عزّ وجلّ

أخرج البخاريُّ في كتاب «النكاح»، باب: «الغيرة»، قال:

حدثنا موسى بنُ إسماعيلَ، حدثنا همامٌ عن يحيى عن أبي سَلَمَةَ أن عروةَ بن الزبير حدَّثَهُ عن أمِّهِ أسماءَ، أنَّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقول:

«لاَ شَيْءَ أَغْيَرُ مِنَ الله جلَّ وعلا».

وأخرجه البخاري من رواية أبي هريرة أيضاً.

وأخرجه مسلم في كتاب «التوبة»، باب: «غيرة الله وتحريم الفواحش» من طريقين.

وأخرجه أحمد في مسنده من طريق سليمان بن داود: أنَّ أسماءَ سمعتْ رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: **«إنَّهُ ليسَ شيءٌ أغيرَ من الله عزّ وجلّ»**.

وكذلك من طريق يونس عن أبان بلفظ: **«لا شيءَ أغيرُ من الله عزّ وجلّ»**.

ومن طريق أبي المغيرة بلفظ: **«لا شيء...»**.

في رواية للطبراني: **«لا أحد أغيرُ من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**[1].

---

(١) «كنز العمال» ٣/ ٣٨٨.

obeikandl.com

وأخرجه الطبراني والطيالسي وابن حبان في صحيحه.

* * *

والأحاديث كثيرة في هذا الباب، وكلها عن غيرة الله عزّ وجلّ، ومنها ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يغارُ، وغَيْرَةُ الله أنْ يأتي المؤمنُ ما حَرَّمَ الله**».

وكذلك: «**ما مِنْ أحدٍ أغيرُ من الله، منْ أجل ذلكَ حَرَّمَ الفواحشَ، وما أحدٌ أحبُّ إليه المدحُ من الله**».

والغَيْرَةُ مشتقة من تغيُّر القلب، وهيجانِ الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص، وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين، هذا في حق الآدمي.

أما الغيرة في حق الله عزّ وجلّ فهي كما ورد في حديث أبي هريرة: «**وغيرةُ الله أنْ يأتيَ المؤمنُ ما حَرَّمَ الله عليه**» وتتجلى غيرة الله بالوعيد، وإيقاع العقوبة بالعاصي.

والله عزّ وجلّ الذي حرَّم الفواحش ما ظهر وما بطن منها على عباده، وأمرهم باتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، كذلك فتح لهم باب التوبة والعذر، ليتوب مسيء الليل كما يتوب مسيء النهار كما ورد في الأحاديث الصحيحة[1].

وكما ورد في الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ: «**تَعْجبون مِنْ غَيْرَةِ سعد، والله لأنا أغيرُ منه والله أغيرُ مني،**

---

(١) انظر: «فتح الباري»، وشرح النووي على صحيح مسلم عند الأبواب المذكورة.

ومِنْ أجل غيرة الله حرَّمَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطنَ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، ومِنْ أجلِ ذلك بعثَ المبشرين والمنذرين، ولا أحدَ أحبُّ إليه المِدْحَةَ من الله، ومن أجلِ ذلك وعدَ الله الجنة» أخرجه البخاري.

ولقد ورد الحديث هذا بمناسبة ما ذكر من غيرة الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولأن أسماء كانت تعرف من زوجها ذلك، وتحبه وترعاه، وهي صفة طيبة من صفات المؤمنين الذين يغارون على محارم الله، ويدافعون عن الحق، ويغضبون إذا انتهكت محارم الله، أو تعرضت أعراضهم للأذى. ويغيّرون بالقلب واللسان واليد والعمل إذا رأوا المنكرات.

ومن هذه الغيرة غيرة الرجل على عرضه وشرفه، وحرصه على صيانته من العبث أو الأذى والتشويه.

وكانت شدة غيرته ـ الزبير ـ معروفة، وله قصص طريفة أيضاً في ذلك، وكانت أسماء وفيَّة له، تحفظ شعوره هذا، وتحرص على الودّ، وتحب هذه المكرمة.

والمسلم الذي يتحلى بذلك، لا يترك للشيطان سبيلاً إلى نفسه فتنقلب الغيرة إلى شكوك وظنون، بل يحكمها بطاعة الله، ويحدها بشرع الله لتبقى في حدود المكرمات.

قوا أنفسكم وأهليكم ناراً

وعن مسؤولية الأُمِّ في تربية الولد، وحرصها على عقيدته قبل حياته، تروي لنا أسماء عن ولادتها لابنها الصّحابيِّ عبد اللَّه

«حدثنا إسحاقُ بنُ نصرٍ، حدثنا أبو أسامةَ، حدثنا هشامُ بنُ عروةَ عن أبيه، عن أسماءَ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّها حَمَلَتْ بعبدِ اللَّه بنِ الزبير بمكةَ، قالتْ:

فخرجتُ وأنا مُتمٌّ، فأتيتُ المدينةَ، فنزلتُ قُباءَ، فولدتُ بقُباء، ثم أتيت به رسولَ الله ﷺ، فوضعتُهُ في حِجْرِهِ، ثم دعا بتمرةٍ فمضغها ثم تَفَلَ في فِيهِ، فكانَ أولَ شيءٍ دخلَ جوفَهُ ريقُ رسول الله ﷺ، ثمَّ حنَّكَهُ بالتَّمرةِ، ثم دعا له، فبرَّكَ عليه.

وكان أولَ مولودٍ وُلِدَ في الإسلام، ففرحوا به فَرَحاً شديداً لأنهم قيلَ لهم: «إنَّ اليهودَ قد سَحَرَتْكُمْ فلا يُولَدُ لكم».

أخرجه البخاري في كتاب «مناقب الأنصار»، باب: «هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة»، وكذلك في كتاب «العقيقة»، باب: «تسمية المولود غداة يولد لم يعق عنه وتحنيكه». وقد تابعه خالد بن مخلد عن علي بن حسن، عن هشام عن أبيه، عن أسماء: «أنها هاجَرَتْ إلى النبي ﷺ وهي حبلى...».

وأخرجه مسلم في كتاب «الآداب»، باب: «استحباب تحنيك

المولود عند ولادته» من عدة طرق، وزاد في روايته عن الحكم بن موسى: «ثم قالت أسماءُ: ثم مَسَحَهُ وصلى عليه وسمَّاهُ عبد اللَّه، ثم جاءَ وهو ابنُ سبعِ سنينَ أو ثمانِ ليبايعَ رسولَ الله ﷺ، وأمَرَهُ بذلك الزبيرُ، فتبسَّمَ رسول الله ﷺ حين رآهُ مُقبلاً إليه، ثم بايَعَهُ».

ووردت ثلاثُ روايات في صحيح مسلم لهذه الحادثة.

وأخرجه أحمد من طريق أبي معاوية أيضاً[1].

* * *

هكذا كان يُربِّي الصّحابة أبناءهم، على العقيدة، والإيمان، وحب الإسلام. ويحرصون على أن ينشأوا على طاعة الله ورسوله، وعلى الالتزام بأمر هذه الدعوة، ليدرك الطفل أن حياته بدون العقيدة لا معنى لها، وأن وجوده من أجل العبادة، وأن أقصى غايته مرضاة رب العالمين. لم يقل واحد منهم دعوهم فإنهم صغار لا يعرفون، واتركوهم للعبهم وعبثهم بدافع الحب والشفقة، بل كان الحب والشفقة تدفعهم إلى هذه التربية المثلى لتحجزهم عن النار، وتدخلهم الجنة. وهل هناك غاية وغرض يقدمه الآباء لأبنائهم أسمى من الجنة: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة. عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[2].

ولقد حرص الصّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعون، وكل

---

(١) انظر: «تحفة الأشراف» ٢٤٨/١١، رقم الحديث (١٥٧٢٧). وانظر: «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ٤١.

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

من حرص على اتِّباع سنَّته ﷺ، على الأخذ بأسلوب التربية النبوية، منذ ولادة الطفل، وإلى أن يصبح رجلاً.

فالتحنيك، والأذان في الأذن اليمنى، والإقامة في الأذن اليسرى، والعقيقة، وتربيته على العقيدة الصحيحة، وتعميق الإيمان بالله عزّ وجلّ في نفسه، الخ... كل ذلك من الأمور المهمة في تربية الطفل. وإن الأساليب الحديثة التي وردت علينا من هنا وهناك، ورحنا نطبّقها في تربية الأطفال، باعدت بينهم وبين دينهم، ولم تغرس العقيدة في نفوسهم، ولم تعودهم على حب الله عزّ وجلّ وحب رسوله ﷺ، وإيثار طاعتهما على كل شيء. وتركتهم بعيداً عن أجواء الأسرة المتحابة المتراحمة المتعاونة، بحيث غرست هذه التربية في نفسهم حب الدنيا، والاهتمام بالماديات فقط، وحب الذات حتى أصبحت المنفعة بكل ما تعنيه هي المطلب للطفل.

هجرة النبي ﷺ ووسام لأسماء

الهجرة بدء للتاريخ الإسلامي، وكفى بها أن تكون كذلك، ساهمت أسماء فيها، وكان لها دور مهم، سيظل علامةَ فخارٍ لها وللنساء إلى يوم الدين. إنها صورة لإسهام المرأة مع الرجل، والصغير مع الكبير في بناء مجتمع العقيدة. وهي تربية عملية لعناصر هذا المجتمع الوليد لتحمُّل المسؤولية والقيام بالواجب، لذلك تتحدث عنها وتروي أخبارها. أخرج عنها البخاري هذا الحديث في «مناقب الأنصار»، باب: «هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة»:

حدثنا عبدُ اللَّه بنِ أبي شَيْبَةَ، حدثنا أبو أسامةَ، حدثنا هشامٌ عن أبيه، وفاطمةُ عن أسماءَ رضي الله عنها، قالتْ: «صَنَعْتُ سُفْرَةً للنبيِّ ﷺ وأبي بكر حينَ أرادا المدينةَ، فقلتُ لأبي: ما أَجِدُ شيئاً أَرْبُطُهُ إلَّا نِطاقي، قالَ: فَشُقِّيهِ، ففعلتُ، فسُمِّيتُ ذاتَ النِّطاقين». وقال ابنُ عباسٍ: «أسماءُ ذاتُ النطاقِ».

وكذلك أخرج من حديث عائشة عن هجرة رسول الله ﷺ حديثاً طويلًا وفيه:

وصنَعْنا لهما[1] سُفْرَةً في جِرابٍ، فقطعتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قطعةً

---

(١) أي صنعت هي وأختها أسماء سفرة لرسول الله ﷺ ولأبيها، ولم تكن عائشة آنذاك قد بلغت الثامنة من عمرها.

مِنْ نِطاقِها، فربَطَتْ بِهِ على فمِ الجرابِ، فبذلك سُمِّيَتْ ذاتُ النِّطاقِ».

* * *

أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب «مناقب الأنصار»، باب: «هجرة الرسول ﷺ وأصحابه»، وكذلك في كتاب «الجهاد»[1].

* * *

وأخرج الإمام أحمد من طريق أبي أسامة عن هشام عن أبيه، وعن فاطمة عن أسماء قالت:

«صنعْتُ سفرةَ رسولِ الله ﷺ في بيتِ أبي بكر حينَ أرادَ أنْ يهاجرَ، قالتْ: فلمْ نَجدْ لسُفْرَتِهِ ولا لسِقائِهِ ما نربِطُهُما بِهِ، قالتْ: فقلتُ لأبي بكرٍ: والله ما أجدُ شيئاً أربطُهُ إلاَّ نِطاقي، قالتْ: فقالَ: شُقِّيهِ باثنينِ، فاربُطِي بواحدٍ السقاءَ، والآخرَ السفرةَ، فلذلكَ سُمِّيتُ ذاتَ النِّطاقين».

* * *

وذكر ابن حجر عند شرح حديث السيدة عائشة عن الهجرة[2] في كتابه «فتح الباري» رواية أخرى[3] أوردها الطبراني فقال:

---

(١) «تحفة الأشراف» ١١/ ٢٤٩، الحديث (١٥٧٣٠) و(١٥٧٣١)، و«تاريخ دمشق (تراجم النساء) ١١.

(٢) وعند البخاري عن ابن شهاب، قال عروة: قالت عائشة... الحديث. وهي رواية طويلة، كتاب «مناقب الأنصار»، باب: «هجرة الرسول ﷺ».

(٣) «فتح الباري» ٧/ ٢٣٥.

قالت أسماء: «كانَ النبيُّ ﷺ يأتينا بمكةَ كلَّ يوم مرتين بكرة وعشية، فلما كانَ يومٌ مِنْ ذلك جاءَنا في الظَّهيرةِ، فقلتُ: يا أَبَتِ، هذا رسولُ الله ﷺ فبأبي وأمي، ما جاءَ به هذ الساعةَ إلاَّ أَمْرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «**هَلْ شَعَرْتَ أنَّ الله قد أَذِنَ لي في الخروج؟**».

فقال أبو بكر: الصّحابَةَ يا رسول الله!

قال: «**الصحابةُ**»[1].

قال: إنَّ عندي راحلتين قد عَلَّفْتُهما منذُ كذا وكذا، انتظاراً لهذا اليوم، فَخُذْ إحداهما.

فقال: «**بِثَمَنِها يا أبا بكرٍ**».

فقال: بثمنِها ـ بأبي وأمي ـ إنْ شِئْتَ.

قالت: فهَيَّأنا لهمْ سفرةً، ثم قَطَعَتْ نطاقَها فربطَتْها ببعضِهِ، فخرجا، فمكثا في الغارِ في جبلِ ثورٍ، فلما انتهيا إليه دخلَ أبو بكرٍ الغارَ قبلَهُ، فلمْ يتركْ فيه جُحْراً إلا أَدْخَلَ فيه إصبعَهُ مخافَةَ أنْ يكونَ فيه هامَةٌ، وخرجتْ قريشٌ حين فَقَدُوهُما في بغائِهما، وجعلوا في النبي ﷺ مائةَ ناقةٍ، وخرجوا يطوفون في جبالِ مكَّةَ حتى انتهَوْا إلى الجبلِ الذي هما فيه، فقالَ أبو بكر لرجلٍ مواجِهَ الغارِ: يا رسول الله، إنَّهُ لَيَرانا.

فقال: «**كَلاَّ، إنَّ ملائكةً تسترُنا بأجنِحَتِها**».

فجلسَ ذلك الرَّجلُ، فبالَ مواجِهَ الغارِ، فقالَ رسول الله ﷺ: «**لو كانَ يرانا ما فَعَل هذا**».

---

(١) وردت (الصحابة) عند البخاري وغيره بمعنى الصحبة.

فمَكَثا ثلاثَ ليالٍ، يروِّح عليهما عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ ـ مولى أبي بكر ـ غنماً لأبي بكر، ويُدْلِجُ من عندهما، فيصبِحُ إذا أظْلَمَ الليلُ انصرفَ بغنمِهِ إليهما، فتَظُنُّ الرعاةُ أنَّهُ معهم.

وعبدُ اللَّه بن أبي بكر يظَلُّ بمكة يَتَطَلَّبُ الأخبارَ، ثمَّ يأتيهما إذا أظْلَمَ الليلُ فيخبرُهُما، ثم يُدْلِجُ من عندِهما فيصبحُ بمكة.

ثم خرجا من الغارِ، فأخذا على الساحلِ، فجعلَ أبو بكر يسيرُ أمامَهُ، فإذا خَشِيَ أنْ يُؤْتَى مِنْ خلفِهِ سارَ خلفَهُ، فلم يزلْ كذلك مسيرُهُ، وكانَ أبو بكر رجلاً معروفاً في الناسِ، فإذا لقيَهُ لاقٍ فيقولُ لأبي بكر: مَنْ هذا معكَ؟ فيقولُ: هادٍ يهديني ـ يريدُ الهدى في الدين ـ ويحسبُ الآخَرُ دليلاً، حتى إذا كانَ بأبيات قديد، وكانَ على طريقِهما، جاء إنسانٌ إلى بني مُدْلِجٍ فقال: قدْ رأيتُ راكبين نحوَ الساحلِ، فإني لأَجدُهُما لصاحبَ قريشٍ الذين تَبْغُون. فقالَ سراقةُ بنُ مالك: ذانِكَ راكبين مِمَّنْ بَعَثْنا في طِلْبَةِ القوم، ثمَّ دعا جاريتَهُ، فسارَّها، فأمَرَها أنْ تُخْرِجَ فرسَهُ، ثم خرجَ فى آثارِهما. قالَ سراقةُ: فدنوتُ منهما حتى إني لأَسمَعُ قراءةَ رسول الله ﷺ، ثم ركَضَتِ الفرسُ فوقَعَتْ بمنخريها، فأخرجْتُ قِداحي من كِنانتي فضربْتُ بها: أضرُّهُ أَمْ لا أضرُّهُ؟ فخرجَ: لا تضرُّهُ، فأبَتْ نفسي حتى أتْبَعَهُ، فأتيتُ ذلك الموضِعَ فوقَعَتِ الفرسُ، فاستخرجْتُ يديه مرةً أخرى، فضربْتُ بالقداحِ أضرُّهُ أَمْ لا، فخرجَ لا تَضرُّهُ، فأبَتْ نفسي، حتى إذا كنت منه بمثلِ ذلك الموضِعِ خشيةَ أنْ يصيبَني ما أصابني بأَذِيَّتِهِ، فقلتُ: إني أرى سيكونُ لك شأنٌ فَقِفْ أُكَلِّمُكَ.

فوقفَ النبيُّ ﷺ، فسألَهُ أن يكتبَ له أماناً، فأمَرَ أنْ يكتبَ لهُ فكتبَ لهُ.

قال سراقةُ: فلما كانَ يومُ حُنينٍ، وأخرجْتُه وناديتُ: أنا سراقَةُ.

فقال النبيُّ ﷺ: «**يومُ وفاءٍ**».

قال سراقَةُ: فما شَبَّهْتُ ساقَهُ في غَرْزِهِ إلاَّ لجمارٍ، فذكرتُ شيئاً أسألُهُ عنه فقلتُ: يا رسول الله، إني رجلٌ ذا نِعَم، وإنَّ الحِياضَ تُمْلأُ من الماءِ فنشربُ، فيَفْضُلُ من الماءِ في الحياضِ، فَيَرِدُ الهَمَلُ، فهلْ لي في ذلك أَجْرٌ؟.

فقال النبي ﷺ: «**نَعَمْ، في كُلِّ كَبْدٍ حرَّى أجرٌ**»[1].

* * *

هذه الأحاديث تكشف عن أمور عظيمة، فضلاً عن أنها تدل على مكرمة لأسماء وعائشة ـ رضوان الله عليهما ـ وللنساء المسلمات وهن يشاركن في الإعداد لهجرة رسول الله ﷺ، وكانت أسماء تُهيِّئ الزاد وتنقله بشجاعةٍ وسرعة وإتقان، وكان كل ذلك يتم في الليل الحالك السواد، تذهب به في تلك الجبال الموحشة والدروب المخيفة، مع ما يحيط مكة من أخطار المتربصين الباحثين عن رسول الله ﷺ من كفار قريش. لقد كان هذا اللقب وساماً من أوسمة الإيمان، ودليلاً على جهادها وتضحيتها، فأصبحت ذات النطاقين علامة جهاد وشجاعة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم، وروى أبو داود طرفاً من آخره، ورواه الطبراني بأجمعه، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب، وثَّقه ابن حبان وغيره، وضعَّفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

والحديث يدل على هذه الصلة الدائمة بين النبي ﷺ والصّدِّيق في سبيل الله ولمتابعة أمر الدعوة، وكان الصّدِّيق رمز المؤمنين الصّادقين الذين باعوا أنفسهم لله عزّ وجلّ، وصاحب رسول الله ﷺ في جميع أموره، لذلك اختاره ليكون صاحبه في رحلة الهجرة.

واختيار وقت الظهيرة لمجيء الرسول ﷺ إلى بيت أبي بكر وهو أشد ما يكون الحر آنذاك، يرشدنا إلى اختيار الوقت المناسب لتنفيذ المهمات العظيمة في سبيل الله، لكي تفوّت على الأعداء الفرصة، وذاك الوقت يأوي الناس إلى بيوتهم هرباً من حر الظهيرة، ودفعاً للجوع، وطلباً للراحة، ولا يُظن بأحد أن يجازف بنفسه للمسير في هذه الساعة المحرقة والخروج من بيته.

وعندما رأت أسماء ـ وكذلك عائشة ـ ذلك أدركت ببصيرتها وشدة وعيها أن في ذلك أمراً مهماً، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شدة اهتمامها بالدعوة ومتابعتها للأحداث، ووعيها بما يجري في مكة.

وكذلك فإنه يدل على الأسرة المسلمة التي تعيش كلها أمر دينها، وتهتم أول ما تهتم بعقيدتها حتى يصبح ذلك ديدنها وركن حياتها.

وكذلك يدل الحديث على شدة احتياطه للأمور، فهو يحسب للمستقبل ما يجب له، لذلك كان يهيِّئ راحلتين قبل أن يعلم بالهجرة، ودون أن يعلم بالصّحبة. إن أسماء وهي تتحدث عن الهجرة تعطي صورة المرأة المسلمة الواعية الداعية التي لا تغرقها مشاغل البيت، ولا تنسيها مظاهر الحياة ما عليها من واجب نحو

ربها ودينها. وكذلك لا تأخذها العاطفة، أو الاهتمام بالدنيا أو الخوف من المستقبل، فتبكي لفراق أبيها، وتجزع لتركهن وحدهن مع الجد العجوز. إنه الوعي والمسؤولية والإيمان الذي يتغلب على كل هذه المشاعر والمخاوف، فالحساب حساب الآخرة، والنجاح والفلاح، والاهتمام كله بالدعوة، والرسول ﷺ.

إن المرأة التي عرف عنها كلفها بالمظهر، واهتمامها بأمر الدنيا، وحرصها على الدعة والراحة، وغرقها في بيتها تنقلب صورة أخرى عندما تتمكن العقيدة منها، وحينما تحمل أمر الدعوة بصدق. إنها امرأة ولكنها صانعة أبطال، ومربية الدعاة، إنها المجاهدة الداعية، والزوجة المؤمنة الوفيّة، والأم المربية في آن معاً، والبنت التي تتحمل المسؤولية ومقارعة الرجال، والقيام بالواجب، حباً في مرضاة الله عزّ وجلّ.

هكذا تركت عائشة وأسماء وغيرهما ـ رضوان الله عليهن ـ القدوة الطيبة، والمثال الفذ للمرأة المسلمة الداعية في إيمانها، وصبرها، ووعيها، ومعرفتها لواجبها، وقيامها بمسؤوليتها، وترتيبها للأولويات في حياتها.

فهل تعي المرأة المسلمة اليوم مثل هذه الدروس؟!.

أسرة الدعوة في الهجرة

أخرج أبو نعيم من طريق ابن إسحاق، حدثتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قالتْ:

«لمَّا هاجرَ رسولُ الله ﷺ، مكَثْنا ثلاثَ ليالٍ ما نَدْري أينَ توجَّهَ، حتى أقبلَ رجلٌ مِنَ الجِنِّ من أسفلِ مكةَ يُغَنِّي بأبياتِ شعرٍ، وإنَّ الناسَ ليَتْبَعُونَهُ، يسمعونَ صوتَهُ وما يَرَوْنَه حتى خرجَ من أعلى مكة، يقولُ:

جـزى الله ربُّ النـاسِ خيـرَ جـزائِـهِ رَفِيقَيْنِ قالا خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ[1]

وعن ابن عساكر:

هما نزلاها بالهدى واهتدوا به فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهـنِ بنـي كعـب مكـانُ فتـاتِهـم ومقعدُها للمؤمنين يرصد

قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة، وكانوا أربعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة ـ مولى أبي بكر ـ وعبد اللَّه بن أريقط دليلهما.

وعن يعقوب قالَ: حدَّثنا أبي عن إسحاقَ قالَ: حَدَّثني

---

(١) «الخصائص الكبرى» للسيوطي ١/ ٧٧، قال: استراحا وقت القيلولة في خيمة أم معبد.

يحيى بنُ عبادَ بن عبد اللَّه بنِ الزبير أنَّ أباهُ حدَّثَهُ عن جدَّتِهِ أسماء بنتِ أبي بكر قالتْ:

«لمَّا خرجَ رسولُ الله ﷺ وخرجَ معه أبو بكر، احتملَ أبو بكر مالَهُ كُلَّه معه، خمسةَ آلاف درهمٍ، أو ستَّةَ آلاف درهمٍ. قالتْ: وانطلقَ بها معه، قالتْ: فدخلَ علينا جَدِّي أبو قحافَةَ وقد ذَهَبَ بصرُهُ فقالَ: والله إني لأراه قد فَجَعَكُم بمالِهِ مع نفسِهِ.

قالتْ: قلتُ: كلاَّ يا أبَتْ! إنَّه قد تَرَكَ لنا خيراً كثيراً، قالتْ: فأخذْتُ أحجاراً، فتركْتُها، فوضعْتُها في كوةٍ لبيتٍ كان أبي يضعُ فيها مالَه، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيدِهِ فقلتُ: يا أبَتْ، ضَعْ يَدَكَ على هذا المال، قالتْ: فوضَعَ يدَهُ عليه، فقالَ: لا بأسَ إنْ كانَ تَرَكَ لكم هذا فقدْ أحْسَنَ، وفي هذا لكم بلاغٌ.

قالتْ: لا والله ما تركَ لنا شيئاً ولكني قد أردتُ أن أسكِّنَ الشيخَ بذلك»[1].

* * *

وهذه صورة، لتعرف المرأة المسلمة، وهي في أوج صباها عندما يصبح الإيمان والإسلام حياة لها، فهي لا تهتم بالدنيا وحلاوتها، بل لا تهتم بالطعام والشراب والزينة، بَلْهَ الزينة والرفاه في سبيل الدعوة، ولذلك تتصرف بما يمليه عليها إيمانها. فلما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وانظر: «تهذيب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» إعداد الأستاذ صالح حمدان ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، و«تاريخ دمشق» (ترجمة النساء) ١٤، و«أعلام النساء» ١/ ٤٧ ـ ٤٨، و«سير أعلام النبلاء» ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠. وقال عنه المحقق: إسناده صحيح.

سألها جدها عمَّا فعله أبوها الصّدِّيق، شفقة من الجد على حفيداته اللواتي تركهن الأب وهاجر في هذا الجو المملوء بالعدواة، والتآمر، والكيد للمسلمين، وكان يعرف أن ابنه الصّدِّيق ضحَّى بكل شيء في سبيل الدين الجديد، وأنه أعطى ولاءه كله لله ورسوله، وأنه باع دنياه كلها (ماله وجاهه وهناءته) لله عزّ وجلّ، ولذلك توقع أن يكون الصّدِّيق قد أخذ ماله كله ـ وهذه هي الحقيقة ـ وعندما سأل أسماء تصرفت هذا التصرف الذكي الحصيف الذي يدل على الإيمان، وحب الله ورسوله، والوعي الإيماني، فأوهمت الشيخ بأن أباها ترك لهن شيئاً كثيراً، فأرضت الله عزّ وجلّ، وحفظت غيبة والدها، وأرضت جدها وسكَّنت قلقه وحزنه، وأنهت المشكلة.

هكذا يفتح الإيمان الصّادق وعي أبنائه، وبصيرتهم.